مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
www.palestine-studies.org

قراءة خاصة

بيان نويهض الحوت*

تجربة "أبو ماهر" أحمد اليماني مع الأيام:
المعرفة أمانة ومسؤولية

أحمد حسين اليماني، "تجربتي مع الأيام: وثائق وشهادات".
خمسة أجزاء**. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، 2004

لو اعتبرنا أن لكل سيرة شعاراً سار عليه صاحبها لكان شعار اليماني: "المعرفة أمانة ومسؤولية"، فالأجزاء الخمسة تنضح بهذا الشعار، فضلاً عن أنه كرره في عدة مواقع.

استهل "أبو ماهر" سيرته بقوله أنه ليس عالماً متخصصاً بالشؤون العربية والدولية، وأنه ليس مؤرخاً، ولا ناقداً، ولا باحثاً في قضايا الحضارة والمجتمع. ثم عرّف نفسه بقوله: "إنني: أحد المواطنين العرب الفلسطينيين العاديين، نلت من العلم والثقافة قدراً محدوداً.. وأتيحت لي فرصة المشاركة ببعض النضالات..." (الجزء الأول، ص 19).

"بعض النضالات" كما سمّاها صاحب السيرة كان في واقعه كبيراً حقاً، واستغرق العمر كله. ذلك بأن "الأخ" أو "الرفيق" أبو ماهر اليماني، مثال يُحتذى لا لمن عرفوه وعايشوه فحسب، بل أيضاً لمن سمعوا عنه في مخيمات الشتات، وفي التجمعات الفلسطينية والعربية. ولعل أهم ما تتميز به شخصية أبو ماهر أنه كان مناضلاً في جميع مراحل حياته، لا يفرِّق بين وظيفة رسمية أو نقابية أو تربوية أو نضال سري أو شعبي. لذلك لو أردنا أن نسجل مهنته الأبرز والأهم في سجل سيرته، لقلنا: "المهنة: مناضل".

إن خير من يتحدث عن هذا "المناضل" هو المناضل الكبير الدكتور جورج حبش، المؤسس والأمين العام لحركة القوميين العرب، والأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؛ فهو يعرف جيداً "أبو ماهر" في الحركة والجبهة. لنستمع إلى حبش يقول في مقدمته للكتاب:

> *... فالرفيق أبو ماهر، كما أعرف ويعرف الكثيرون، أمضى العمر كله في الكفاح من أجل القضية الوطنية، من أجل استعادة الحقوق الثابتة والمشروعة للشعب الفلسطيني... كان شعلة متحركة، تتميز بالعناد والمثابرة، فكان محرضاً ومنظماً، ومعبئاً للجماهير للدفاع عن نفسها وعن حقوقها...* (1/5 – 6).

ثم يصفه في جميع مراحل نضاله بقوله:

> *كان الرجل مبادراً، يتمتع بقدر كبير من النشاط والحيوية ونكران الذات... وبدون أي مجازفة أو مبالغة، يمكن القول إن سلوك الرجل كان أنموذجاً يُحتذى. فقد اشتهر أبو ماهر ولا يزال بنظافة اليد واللسان، وبقدر كبير من النزاهة الأخلاقية، الأمر الذي جعله يستحق لقب "ضمير الثورة". فقد عرفه الجميع، إنساناً متواضعاً إلى أبعد الحدود، في مأكله وملبسه ومعيشته، وحساساً إلى أبعد الحدود...* (1/7؛ 12).

(1) فلسطين أولاً..

العنوان العام لمذكرات اليماني في أجزائها الخمسة هو: "تجربتي مع الأيام: وثائق وشهادات"، والعنوان يوحي

بمنهجين: المنهج "المذكراتي الذاتي" (هذا إذا افترضنا وجود منهج للمذكرات بصورة عامة)، والمنهج "التوثيقي". غير أن "القسمة" بينهما "غير منصفة"؛ فالجزء الأول فقط ينتمي إلى منهج المذكرات، بينما تنتمي سائر الأجزاء إلى المنهج التوثيقي، إلى حد بعيد.

في الجزء الأول من تجربته مع الحياة، يروي اليماني كل ما علق بذاكرته عن نشأته وقريته ووطنه. وقد صاغ تلك التجربة بكل الصدق والحب والمسؤولية والعاطفة الجياشة لفلسطين، ولـ "سحماتا" رمزاً لفلسطين، فقدم سيرة ذاتية يندر الحصول على مثلها بين أبناء جيله المخضرم، جيله الذي كان شاهداً على المأساة، والذي أُلقيت على كاهله أعباء المصير.

أمّا الأجزاء الأربعة اللاحقة عن مراحل نضاله ونضال شعبه في الشتات فيختلف منهج كتابتها اختلافاً كلياً عن الجزء الأول؛ إذ لا تواكبها سيرة ذاتية، إلاّ في صفحات معدودة ومتناثرة. أمّا المحتويات فهي في معظمها بيانات، وبرامج، ومذكرات، وتقارير، ورسائل، ومقالات، وخطب، إلخ، مع بعض التعليقات أو الذكريات المتناثرة هنا أو هناك. بينما يتوقع القارئ انطلاقاً من العنوان أن يقرأ للمناضل الكبير عن تجاربه الذاتية في كل من الأجزاء الخمسة، كما يتوقع في الوقت نفسه أن يجد الوثائق المتعلقة بكل جزء في ملحق وثائقي، في نهاية الكتاب.

تُرى، هل من سبب جوهري وراء هذا الاختلاف في تدوينه لتجاربه ما قبل النكبة وما بعدها؟

في اعتقادي أن هناك سببين: أولهما أن صاحب المذكرات بات يحتفظ مع كل الحرص والمسؤولية بالأوراق والوثائق والرسائل وغيرها، في مراحل ما بعد النكبة، بينما هو لا يمتلك أوراقه لمرحلة ما قبلها. فهو قد أُبعد عن موطنه مشياً مع مجموعة من إخوانه المعتقلين سنة 1949، يلاحقهم رصاص الجنود الإسرائيليين حتى الحدود الفلسطينية – اللبنانية؛ ثانيهما أن صاحب المذكرات امتاز من سواه من المناضلين المسؤولين برغبة شديدة في أن يضع أمام الأجيال كل ما لديه من "أوراق خاصة"، ولسان حاله يقول: هذا ما استطعنا أن نقوم به، هذا ما ناضلنا من أجله كل يوم من أيام حياتنا، فاحكموا لنا أو علينا.

بكلمات أُخرى: كان الهاجس الدائم للأخ أبو ماهر هو فلسطين، لا السيرة نفسها، أو أسلوبها، أو منهجها، أو كيفية سردها. فما دامت هذه الورقة أو تلك من الملفات التي احتفظ بها، تشرح جانباً من جوانب القضية، أو تلقي ضوءاً على فصل من حياة شعبها، فلها الأولوية. لذلك كانت عملية ترتيب "الأوراق" لا تتبع قواعد محددة؛ فالنصوص الوثائقية قد تكون ضمن الصفحات الأولى أو في النهاية، أو حيثما تتطلب المناسبة. وأحياناً يكتشف القارئ عودة إلى منهج المذكرات في صفحات محدودة، لكنه قد يفاجأ بعدها بعدد من التقارير التفصيلية الداخلية للحركة أو الجبهة، وقد يكتشف نصاً أدبياً لمسرحية عن صلاح الدين قُدمت في مخيم عين الحلوة، أو يكتشف مراسلات خاصة أو رسمية لإنشاء مدرسة لأبناء فلسطين اللاجئين في برج البراجنة. هنا.. يتوقف القارئ ليتساءل: وأين صاحب المذكرات؟ الواقع أن صاحب المذكرات موجود، لكن على القارئ أن يبحث عن سيرته ضمن الوثائق، والمراسلات، وبرامج التعليم التي كان وراءها، والنقابات التي أحياها أو أسسها؛ ذلك بأن المذكرات الحقيقية هي عن فلسطين، عن اللاجئين من أبناء فلسطين، عن النضال من أجل فلسطين. فصاحب المذكرات يتوارى كي يبرهن بكل ما يمتلك من أوراق أو تقارير أو بيانات على أن شعبه ناضل، واعتُقل، واستُشهد، واستمر يحمل المشعل للأجيال اللاحقة.

إن هذه الأجزاء الوثائقية والتقريرية الأربعة، الخاضعة لمنهج فريد في نوعه، والمطعمة بالقليل من النص المكتوب، ما كانت لتكون هكذا لولا فلسطين والفرادة التي تتمتع بها قضية فلسطين، بحيث يعتقد صاحب السيرة أنه يجوز له ما لا يجوز لغيره في كتب مماثلة. ولنا عودة إلى هذا المنهج الفريد في النهاية.

(2) نشأته في سحماتا

ولد أحمد حسين اليماني، "أبو ماهر"، في قرية سحماتا – قضاء عكا، في الجليل الأعلى من فلسطين، سنة 1924. والده حسين أحمد محمد علي سليمان، أمّا كنيته "اليماني" فأُطلقت على جده "أحمد" الذي خدم مع الجيش التركي في اليمن، فلمّا عاد بعد خمسة عشر عاماً، وراح يروي لأهالي سحماتا عن اليمن، وأهلها، وتجاربه الغزيرة في جبالها الوعرة، التصقت به كنية "اليمني"، ثم تحولت مع الزمن إلى "اليماني". أمّا والدته فهي سعيدة الحاج عبد الرحيم قدورة، وقد كان صاحبنا، صاحب السيرة، ابنها البكر، فكان طبيعياً أن يطلق عليه والداه اسم "أحمد"، تيمناً باسم جده.

أول الصفات التي التصقت بالفتى أحمد منذ طفولته وصباه، التواضع والبساطة والصدق اللامتناهي. ولنستمع إليه يصف بيته في سحماتا:

> *كان بيتنا، كمعظم بيوت أهل القرية، جدرانه من الحجر الصخري، سقفه من الخشب الوعري، وأغصان الأشجار، تعلوها طبقة من الطين، يتم كل عام إضافة طبقة خفيفة من الطين، لكي لا تتسرب مياه الشتاء إلى داخل البيت.*
>
> *كان البيت واسعاً، قائماً على أربع قناطر حجرية، تحمل السقف، وقن للدجاج، ورف للحمام، وإسطبل للدواب.*
>
> *مصطبته واسعة للجلوس نهاراً، والمنامة ليلاً، يلتصق بالمصطبة من الداخل مستودع للتبن، وغذاء الدواب (تبّان)* (1/32).

وبعد أن يتحدث عن مواقد النار، وأماكن تخزين الحبوب والزيت، والفراش، والصندوق الخشبي للملابس، يروي كيف كانوا ينامون، الأخوات والإخوة العشرة، فيقول:

> *كنا ننام على المصطبة، مفروش عليها حصائر من القش، لكل اثنين أو ثلاثة فرشة، ولحاف، ومخدتان (رحم الله الوالدة، كانت تقضي قسماً من الليل ساهرة تغطي من ينزاح اللحاف عنه، خوفاً علينا من البرد)* (1/32 – 33).

يؤكد ابن سحماتا أن الفقر علة لكنه ليس عاراً. فوالده كان من فقراء القرية، عمل عند بعض المُلاّك من سحماتا نفسها، والبلدات المجاورة، وكان رجلاً أبي النفس، يحدث أبناءه عن عمله، عن تجاربه، وعن حسن معاملة المُلاّك له.

وكان صاحبنا في السادسة من عمره لمّا رافق أباه إلى مدينة عكا، وكانت تلك أول مرة يغادر فيها الصغير أحمد سحماتا. فيا لها من فرحة. لم ينس الصغير تلك الزيارة، كانت عكا في ذلك اليوم، السابع عشر من حزيران/يونيو 1930، تعيش يومها التاريخي الكبير في وداع الشهداء الأبرار الثلاثة، محمد جمجوم، وفؤاد حجازي، وعطا الزير. كيف ينسى الصغير أعواد المشانق في باحة سجن عكا الشهير، وأهازيج أمواج البشر في الطرقات؟! ظن الصغير أن ما حوله عرس، وقد كان حقاً عرساً للشهداء.

ولعل أكثر المشاهد التصاقاً بوعي الفتى على مأساة وطنه، بندقية أبيه وحكايتها في أسرتهم على مر الزمن. لمّا قامت ثورة القسّام سنة 1935، ومن بعدها الثورة الكبرى سنة 1936، كان والده من الذين باعوا أغلى ما يملكون لشراء بندقية: باع البقرة الوحيدة التي كان يملكها، واشترى البندقية التي باتت في بيتهم رمزاً للنضال والرجولة. يتذكر أبو ماهر عندما كان فتى في الثانية عشرة من عمره، يوم استجابت قيادات فلسطين لنداء الملوك والأمراء العرب بإنهاء الإضراب. يتذكر كيف كان مختار سحماتا يدعو مسلحي القرية إلى تسليمه أسلحتهم، وكيف كان يستدعي البوليس البريطاني من مركز ترشيحا لاستلام الأسلحة. ويتذكر كيف كانت مصفحة البوليس تعود محملة بالبنادق والذخائر (1/43 – 44). أمّا أبوه، فاحتفظ بالبندقية. ولمّا قامت ثورة من جديد بعد صدور قرار التقسيم، عاد والده إلى بندقيته، التي ادخرها، ليستعملها (1/42).

(3) التعليم في فلسطين

قال صاحبنا عن والده إنه كان أمياً، لكنه كان مصراً على تعليم أبنائه. وهو على الرغم من فقره الشديد تمكن من تعليم ابنه أحمد، الذي ما إن أنهى دراسته في مدرسة سحماتا الابتدائية حتى انتقل إلى مدرسة ترشيحا الابتدائية. أمّا دراسته الثانوية فتنقلت من مدرسة صفد إلى مدرسة عكا، فالكلية العربية في القدس، وهي التي أنهى فيها المرحلة الثانوية. أعرفُ أن ليس في سرد أسماء المدارس التي درس فيها صاحبنا ما يهم القارئ كثيراً، لكن أهمية ذكريات صاحبنا عن أعوام دراسته تكمن في كونها شهادة حية فيما يتعلق بواقع الحياة الدراسية، والصعوبات، والمناهج، وعلاقات الطلبة بالمعلمين، وعلاقة الأهل بأولادهم، وهي أفضل شهادة قرأتها في حياتي

فيما خص التعليم في فلسطين. هذه شهادة تتميز بالتفصيلات التي لا يمل القارئ منها؛ فصاحبنا لم ينسَ رفاقه وأساتذته، لم ينسَ عذابه اليومي في التنقل، وفي المعيشة، وفي عصر القروش بل الملاليم كي تكفي حتى نهاية الشهر. لم ينسَ الذين تعاطفوا معه، بالتشجيع، بالمال، بالصداقة. وهو طوال المشوار، كان إصراره الشديد على التعلم وعلى إرضاء والديه هما سر نجاحه المتواصل.

ذكريات الفتى أحمد اليماني المدرسية تنطلق من مدرسته الابتدائية في سحماتا، التي انتقل إليها بعد تتلمذه على يد الشيخ بدر توفيق قدورة. وكانت دروس الشيخ بدر أساس المعرفة الدينية واللغوية في صقل معارف الصغار، حتى إن والد أحمد لمّا سأل مدير المدرسة، خليل الديماسي، إن كان يرى مانعاً في أن يستمر ابنه في متابعة دروسه مع الشيخ بدر، أجابه المدير: "عين الصواب فعلت، فدراسة القرآن الكريم عند الشيخ تساعد على تقويته باللغة العربية، شريطة أن لا يتأخر عن الوصول إلى المدرسة" (1/47 – 48).

مع انتقال التلميذ الصغير أحمد إلى الصف الثاني الابتدائي، انتقل المدير إلى مكان آخر، وحل محله الأستاذ صلاح النحوي في إدارة المدرسة. وكان مديراً يحب التطوير إلى حد باتت مدرسته تجذب المفتشين والمدراء لزيارتها، وإلى حد مكافأة مديرها بتعيين أستاذ إضافي آخر معه من ترشيحه، هو خالد شكري. ويشرح اليماني كيف عمل مدير المدرسة على تطويرها، وكأنه يتحدث عن مدرسة حديثة، لا مدرسة قرية في ثلاثينيات القرن العشرين:

> *جمع الأستاذ صلاح وجهاء القرية، وأولياء أمور الطلاب، وراح يحدثهم عن مستقبل أولادهم، وأوضاعهم في القرية، بعد انتهاء دراستهم، وأنهم سينصرفون إلى العمل معهم في الأرض، وأنه يرى أن يستفيد الأهالي من الأرض البور المحيطة بالمدرسة، لإنشاء حديقة، يمكن أن تتحول إلى بستان، يتعلم الطلاب مبادئ الزراعة الحديثة في أوقات فراغهم، سواء بالنسبة لزراعة الورود والأزهار، ورعايتها، أو غرس الأشجار، وتقليمها، والحفاظ عليها.*
>
> *وإضافة إلى الزراعة تم إنشاء قسم الدواجن بأسلوب حديث أيضاً – الدجاج – الحمام – والأرانب.*
>
> *وكذلك تربية النحل بالصناديق الخشبية، والاستفادة مما تنتجه هذه الأقسام بتطوير أوضاع المدرسة، تجديد الطاولات والكراسي والمقاعد، وحفر بئر في الحديقة... إلخ* (1/50 – 51).

ولا ينسى التلميذ الوفي أن يذكر أن إدارة المعارف كافأت الأستاذ الذي عمل على تطوير مدرسته؛ فبعد زيارة مستر بومان، المدير العام لدائرة المعارف البريطاني، للمدرسة تمت مكافأة الأستاذ النحوي بترقيته.

أمّا عن الصعوبات المالية التي هددت صاحب السيرة أكثر من مرة بالتوقف عن الدراسة، فنختار منها بعض ذكرياته عن الكلية العربية في القدس. فهو حين سلمه مدير مدرسة عكا كتاب القبول في الكلية العربية، كانت فرحته لا توصف، لكنها سرعان ما تحولت إلى غم بمجرد قراءته للائحة الطويلة المطلوب تأمينها من اللوازم المدرسية لطالب داخلي. وبينما هو على تلك الحال في باحة المدرسة، مر به الأستاذ حامد عطاري، فهنأه، ولمّا استغرب حاله ناوله أحمد لائحة اللوازم من كتب وثياب وبياضات، وقال له إن والده لن يستطيع تأمينها بأي حال، فوعده الأستاذ خيراً ودعاه إلى منزله في صباح اليوم التالي. وهناك كانت المفاجأة، إذ سلمه حقيبة مملوءة بالكتب المطلوبة، وأُخرى بالملابس. كما سلمه رسالة إلى عميد الكلية، الأستاذ أحمد سامح الخالدي، وقدم له خمسة جنيهات (1/65 – 67).

غير أن المطالب المدرسية لم تقف عند هذا الحد. إذ كان عليه أن يشتري اللباس الموحد من تعاونية الكلية بثلاثة جنيهات، فمن أين؟ وجاءه الفرج من زميله حامد أبو ستة، الذي انتحى به يوماً، وطلب منه أن يقبل منه بلا نقاش الجاكيت التي تحمل شعار الكلية. وفي مرة أُخرى تقدم منه زميله محمد نجم وقدم له ربطة عنق هدية، ولمّا صارحه بأنه لا يعرف كيف يربطها، قام محمد نجم فربطها له.

في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، قمت بمقابلات مطولة مع مسؤولين في الثورة الفلسطينية، ولمّا قابلت الأخ أبا ماهر ذكر لي حكاية الجاكيت وربطة العنق، وهو يضحك، بل تكاد عيناه تدمعان من الضحك، وهذا ما

شجعني على سؤاله: "هل فرحتَ بالجاكيت أكثر أم بربطة العنق؟" فأجابني وهو لا يزال يبتسم: "بالجاكيت لأنها أدفأتني في الشتاء، أمّا ربطة العنق فكانت طويلة جداً، وأنا قصير." عندها قلت له: "لكنها من محمد نجم، وهو غير مشهور بالطول أبداً"، فعاد يضحك ويقول: "لكن.. سبحان الله.. كانت تبدو عليه غير شكل."

(4) العمل النقابي وسامي طه

ما إن تخرج من الكلية العربية حتى بدأت مرحلة جديدة من حياته؛ من موظف في دائرة الزراعة الحكومية في عكا، إلى موظف في دائرة الأشغال العامة في حيفا. وخلال عمله المكتبي والميداني في هذه الدائرة تمكن من الاطلاع على أوضاع العمال والموظفين العرب واليهود، وعلى سياسة الأجور، واكتشف الفوارق في التعامل مع كل من الفريقين. وتلك كانت بداية اهتمامه بأخبار جمعية العمال العربية الفلسطينية، فقام مع زميلين له، هما نصري دكور وعلي محمد كامل، بزيارة مقر الجمعية لتقديم أية مساعدة ممكنة في نطاق دائرة الأشغال. واستمرت علاقته بالجمعية تقوى مع الأيام، كما ازدادت خبرته بشؤون العمال. وجاء يوم ترك فيه الوظيفة الرسمية ورضي براتب أقل كثيراً في الجمعية من أجل الخدمة العامة، وأصبح منظم نقابات في جمعية العمال العربية الفلسطينية في حيفا، ثم أمين سر فرع الجمعية في يافا. وتبقى الصفحات المطولة التي خطها صاحبنا عن تجربته النقابية، وعن الإنجازات التي تحققت للعمال في أصعب الظروف، مدعومة بالأرقام والأسماء والتفصيلات، من أهم ما صدر عن العمل النقابي في فلسطين (راجع: 1/102 – 153).

من الشخصيات التي تأثر بها صاحب السيرة كان سامي طه، الأمين العام لجمعية العمال العربية الفلسطينية. وصاحبنا يروي كيف نمت صداقتهما، وكيف أن سامي طه لم يكن قائداً عمالياً نقابياً فحسب، بل كان أيضاً مناضلاً سياسياً، وجد فرصته الأولى على المسرح الدولي عندما كان عضو الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر لندن سنة 1947، وكان الوفد برئاسة جمال الحسيني. عرض سامي طه في كلمته تطور النضال الفلسطيني، ومسؤولية الحكومة البريطانية بصورة خاصة، ومحاباتها لليهود بشتى الوسائل. وقدم الأدلة والوثائق، فلاقت كلمته استحساناً من مندوبي الوفود العربية، الذين وجهوا إليه الدعوات لزيارة بلادهم (1/132 – 135). وهكذا.. غادر سامي طه فلسطين إلى لندن زعيماً عمالياً، لكنه عاد إليها مرشحاً بقوة للزعامة السياسية. وتجلت فعلاً انطلاقة "زعامته" هذه في المؤتمر العام الثالث لجمعية العمال العربية الفلسطينية، الذي حضره 120 مندوباً يمثلون 120.000 عامل فلسطيني. ركز سامي طه في تقريره أمام الحضور على العلاقة بين كل من الحركة السياسية والحركة النقابية، وانتهى المؤتمر إلى تبني مجموعة اقتراحات، أبرزها:

> *1 – رفض مبدأ مشروع تقسيم فلسطين، الذي كان يناقش في دوائر الأمم المتحدة.*
>
> *2 – تأييد مشاريع الجامعة العربية الاقتصادية التي تهدف إلى تكوين صندوق تسهم فيه الدول العربية... لشراء الأراضي في فلسطين، كي لا تباع لليهود، وتبقى باسم الجامعة العربية، ويشتغل فيها الفلاحون الفلسطينيون...*
>
> *3 – إقامة دولة عربية فلسطينية ديمقراطية.*
>
> *4 – اعتبار اليهود العرب، الذين كانوا يقطنون فلسطين حتى عام 1918... ومن تناسل منهم مواطنين لهم كافة الحقوق، وعليهم كافة واجبات الوطن* (1/136).

غير أن الهيئة العربية العليا هاجمت المؤتمر، وقراراته، وأمينه العام، بشدة عبر الصحف. ولم يكد يمر شهر واحد على المؤتمر حتى اغتيل سامي طه بتاريخ 1947/9/11، فأعلن العمال الإضراب العام في فلسطين، وقامت التظاهرات الصاخبة، وأقيم له في حيفا مأتم مهيب، حضرته شخصيات وطنية ودينية ورسمية تمثل مختلف الفئات والهيئات الفلسطينية، كما شاركت فيه وفود عربية، باستثناء الهيئة العربية العليا التي لم يحضر من طرفها أحد (1/138).

ببساطة، وبمنطق العقلاء، وبوحي من ضمير حي لا يمتلك مثله سوى قلة نادرة من البشر، أجاب اليماني عن السؤال الذي أرّق المؤرخين والباحثين: من اغتال سامي طه؟

اعترف صاحبنا بعدم وجود أدلة حاسمة، إلاّ إنه اعترف بوجود وقائع وحوادث جعلت كثيرين يتهمون الهيئة العربية العليا. ويضيف اليماني: "... لا سيما وأن الهيئة طلبت من السيد عبد الحميد حيمور رئيس الجمعية إحلال السيد يعقوب الحسيني مكان سامي طه في الأمانة العامة، ولكن قيادة الجمعية رفضت ذلك." ثم لا يستبعد اليماني قيام الاستخبارات البريطانية، أو الأجهزة الإرهابية الصهيونية، باغتياله بهدف تأجيج الصراعات بين القيادات الفلسطينية، وبعث الإرباك والحد من نشاط جمعية العمال العربية الفلسطينية. ثم يختم البند بشأن اغتيال سامي طه بقوله إن القاتل عُرف بعد أعوام من العملية، كان اسمه صبحي شاهين، "وكان معروفاً عنه أنه كان أحد أعضاء الأجهزة المحسوبة على الهيئة العربية العليا في حيفا" (1/140).

وأجاب اليماني عن سؤال آخر لم يسأله أحد من قبل، وهو عن قيمة الديون التي تركها سامي طه، وهو الذي لم يكن قد مضى عام واحد على زواجه، فراح اليماني، زميله الوفي، يعمل مع عائلته على حصر الديون، التي اتضح أن مجموعها 570 جنيهاً فلسطينياً، وقد جرت حملة تبرع من العمال لجمع المبالغ، وسُدت الديون. أمّا زوجته، الحامل في شهرها السابع يوم اغتيال زوجها، فقد ولدت صبياً سمّته سامي طه.

(5) بدايات العمل النضالي

كان العمل النقابي بحد ذاته عملاً نضالياً، فكيف بعد أن قامت في فلسطين المجابهات ضد مشروع التقسيم. وقد ساهم صاحبنا في اللجنة القومية في يافا، ثم في حيفا. ولمّا قاربت حيفا على السقوط تمكن من المحافظة على أوراق جمعية العمال العربية بنقلها إلى عكا. ثم كان ما لم يكن منه بد، وهو مغادرة حيفا، فعاد إلى عكا ومنها إلى سحماتا، الموطن الأول.

تأكد اليماني من أن أوراق الجمعية وصلت سالمة إلى عكا، وكان هناك دور لبعثة الصليب الأحمر اللبناني في الحفاظ عليها، وكان يترأس البعثة الدكتور بشارة الدهان. ويتوقف اليماني ليشيد بالموقف النبيل للدكتور الدهان حين اقتحم الصهيونيون المستوصف حيث يوجد مجاهدون جرحى، وحاولوا اعتقالهم، غير أن الدهان قال للضابط اليهودي:

> *أنا طبيب، ومسؤول منظمة دولية، مهمتي إنسانية، والجرحى في المستوصف أمانة في عنقي. لن أسمح لكم بالدخول إلى المستوصف إلاّ على جثتي.. وها أنا أمامكم، أطلقوا النار عليّ قبل أن تدخلوا.. اقتلوني ثم ادخلوا، وإلاّ فانصرفوا* (1/165 – 166).

يشعر المرء بالكرامة والعزة الوطنية وهو يقرأ تاريخ فلسطين في مذكرات اليماني. فها هي القيادات المحلية تحركت ولم تنتظر إذناً من أحد، وقد تمكنت من عقد مؤتمرها الأول – بعد 15 أيار/مايو – في قرية الرامة/قضاء عكا، بتاريخ 26/6/1948. ها هم الأعضاء اختاروا الخوري يعقوب حنا رئيساً للمؤتمر، وأحمد اليماني مسجلاً للوقائع. وما إن مرت أيام حتى اجتمعت اللجنة المركزية المنبثقة من المؤتمر، في ترشيحا، بحضور قائد جيش الإنقاذ في المنطقة، العقيد العراقي مهدي صالح، وأسندت إلى اليماني أمانة سر اللجنة المركزية (1/171 – 173). ومن قراءة البيان الأول الذي أصدره عنواناً ومضموناً وإمضاءً، تقرأ شخصية اليماني المناضلة المتواضعة المتفانية، فالعنوان: "إلى عموم أهالي قريتنا الحبيبة سحماتا، أيها الأهل الكرام". وبعد شكر الأهالي على ثقتهم به، يقول:

> *ولمّا كان كل امرء يعمل، معرضاً للخطأ، لذلك أرجو باسم اللجنة، كل أخ منكم أن يتقدم بانتقاداته لكل عمل من أعمالها... وهي تقبل الانتقادات بصدر رحب ونفس راضية...*
> *ابنكم وأخوكم أمين سر لجنتكم*
> *أحمد 30/6/1948* (1/174 – 175)

أهم ما في الجزء الأول من مذكرات اليماني هو الأهم في تاريخ فلسطين؛ إنه رواية السقوط. فهو يروي كيف سقط الجليل؛ كيف سقطت سحماتا وما حولها؛ كيف انسحبت قيادة جيش الإنقاذ وتركت الناس تجابه مصيرها؛ كيف نهب الجنود اليهود بيوت القرويين؛ كيف سخروا شباب القرى للقيام بجمع المواد الغذائية والأثاث وكل ما يمكن

حمله من البيوت، تمهيداً لنسفها؛ كيف طاردوا الأهالي بالرصاص من قراهم كي يرحلوا؛ كيف تمت عمليات الترحيل بالإكراه، إذ ما كان أمام الأهالي المطارَدين سوى الرحيل؛ كيف تناقضت آراء الآباء مع الأبناء، حتى بين والد كأبي أحمد وابنه أحمد، الذي رفض الخروج من موطنه، فأتاح ببقائه للجيش المحتل أن يعتقله؛ كيف اعتقل الجنود الصهيونيون الشباب وعذبوهم وأهانوهم؛ كيف جمعوهم من المعتقلات، على دفعات، ورموهم قرب الحدود مع لبنان، وقالوا لهم إن الرصاص وراءهم فإياهم أن يعودوا. وقد كان أحمد اليماني أحد هؤلاء المعتقلين المعذبين في السجون، والمطرودين من وطنهم نحو الحدود (راجع: 1/194 – 221).

(6) على دروب النضال

اختار أبو ماهر أن يقسّم سائر الأجزاء وفقاً للموضوعات، أو لدروب النضال. وكما ذكرنا أعلاه فالمنهج التوثيقي كان في هذه الأجزاء الأربعة هو الغالب، ولمّا كان موضوعنا ليس مناقشة قوانين وبيانات حركة القوميين العرب، أو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أو منظمة التحرير الفلسطينية، أو الحركات النقابية، إلخ. فسنكتفي بمحاولة إلقاء أضواء على صاحب السيرة من خلال هذه الأجزاء، بالتتابع.

الجزء الثاني يحمل عنوان: "في دنيا الشتات خارج فلسطين"، ويتناول الأحداث منذ تمكن صاحب المذكرات من اللحاق بذويه في طرابلس/لبنان، وفيه عن حياة اللجوء في المخيمات، وحياة الاعتقال في السجون اللبنانية؛ وقد كانت عملية الاعتقال تتم بتهمة أو من دون تهمة، ما دام "المتهم" فلسطينياً!! ويلقي هذا الجزء أضواء مهمة على واقع التعليم لدى اللاجئين، من خلال تجارب اليماني في سلك التعليم، وقد افتتح الفصل "في ميدان الثقافة والتربية والتعليم"، بقوله:

> *الوطن، ليس ما نعيش فيه فقط، بل ما يعيش فينا، ما دمنا أحياء، فالوطن الذي يعيش في وجداننا هو خلاصة الهوية... إن قريتي وحارتي تعيش في قلبي، وكأنني ما زلت أعيش في بيتنا الذي ولدت فيه.. وسأظل أناجي الوطن والقرية، والحارة والبيت.. أين أنت يا فلسطين؟ أين أنت يا سحماتا؟... اليوم أعيش الغضب الذي يرافق الأمر الواقع.. وأنا أشعر أن مهمتي الأولى تكمن في تفجير ينابيع الحياة والآمال التي تعيش في صدور الأمهات والآباء والأطفال...*
>
> *سأتوجه لممارسة مهنة التعليم في المدارس لأزرع مع إخواني وأخواتي المعلمين والمعلمات روح البذل والعطاء والاستعداد لبذل الأرواح والدماء على طريق تحرير فلسطين والعودة إليها...* (2/38 – 39).

درّس اليماني في عدد من المدارس في طرابلس وصيدا وبيروت، في مدارس الأونروا في المخيمات، وفي المدارس الأهلية ومدارس المقاصد. كما ساهم في تأسيس بعضها، كمبرّة الملك سعود في برج البراجنة. وفي أكثر من مرة اضطر إلى تقديم استقالته رأفة بإدارة المدرسة، بعد انقطاعه مدة عن التدريس بسبب اعتقاله. أما كان أبو ماهر فلسطينياً مناضلاً وعضواً في حركة القوميين العرب؟ أما كان "دينامو" اللجان الشعبية والحركة الكشفية؟ كان بعض هذا كافياً لأن يعتقل كلما قامت تظاهرة هنا أو هناك، فهو على لائحة الاتهام في كل الحالات!! كتب مرة إلى زوجته رسالة من سجن الرمل بتاريخ 1958/3/19، أوصاها فيها بعد السؤال والسلام على الجميع فرداً فرداً، قائلاً: "عزيزتي سهام... الشيء الوحيد الذي أوصيك به، هو أن لا تطلبي من لئيم مساعدتي في قضيتي..." (2/204).

الجزء الثالث من تجربته مع الأيام، كرسه اليماني للكتابة "في ميدان العمل التنظيمي والجماهيري والمهني"، وهو الذي شارك في تأسيس وبناء الأطر التنظيمية لإحدى عشرة مؤسسة، منها تنظيمات عسكرية، ومنها روابط للمعلمين والطلاب والعمال، ومنها اتحادات عمالية ونسائية، ومنها أندية ثقافية. وهذا الجزء مهم في سرد نشاط هذه المؤسسات وقوانينها والعقبات التي تعرضت لها، وهو يلقي الضوء على معاناة الفلسطينيين في الشتات حتى وهم يعملون على تنظيم أمورهم وحياتهم، وفيه كثير من البيانات والنشرات والنداءات والمهرجانات؛ فهو أرشيف حي لمرحلة فلسطينية يُخشى عليها من الضياع، كما ضاع الوطن.

أمّا الجزء الرابع فعنوانه "التجربة في إطار حركة القوميين العرب"، غير أن ما طغى على عمق التجربة لمناضل كأبي ماهر اليماني هو حرصه الذي لا يبارى على نشر كل ما لديه من البيانات والوثائق والخطب، إلخ. والواقع أن اليماني تسلّم في قيادة الحركة وكوادرها اثني عشر مركزاً نضالياً، منها: أمين سر قيادة إقليم فلسطين؛ عضو قيادة الجناح العسكري للحركة في لبنان؛ عضو المؤتمر القومي العام للحركة؛ عضوية المكتب السياسي العربي لحزب العمل الاشتراكي (راجع 19/4). غير أن مناضلاً عريقاً كهذا قدم التنظيم على نفسه، على تجربته الفعلية، فتحدثت الأوراق الرسمية أكثر كثيراً مما حدثنا هو، حتى لقاءاته مع الرئيس عبد الناصر اكتفى منها بالكلمات الرسمية. صحيح أن المذكرة التي قدمت للرئيس في دمشق سنة 1959 كتبت بالدم، وكانت تطالب بالتدريب العسكري للفلسطينيين، ومن المهم جداً كان نشرها حرفياً، لكن هناك انطباعات شخصية كنا نتمنى أن نقرأها للأخ أبي ماهر عن عبد الناصر. وهناك عدة موضوعات مع عبد الناصر ما زلنا ننتظر سواء من الأخ أبو ماهر، أو من إخوانه المسؤولين في الحركة، أن يطلعونا عليها.

أمّا أهم ما في الجزء الرابع، فهو الإضاءة الرائعة على سجل "أبطال العودة"، هؤلاء الأبطال حقاً الذين كانوا من أوائل الفدائيين، والذين قام جيش التحرير الفلسطيني بإعدادهم والإشراف عليهم، وقد كان شقيقه محمد اليماني واحداً من هؤلاء الأبطال. وفي ذكرى الأربعين للشهداء الثلاثة: محمد اليماني، ورفيق عساف، وسعيد العبد سعيد، التي أقيمت في مخيم البداوي بطرابلس، بتاريخ 1966/12/4، قال "أبو ماهر" مخاطباً أخاه محمداً، "أبا الهيثم":

> *أخي أبا الهيثم،*
>
> *علمتك صغيراً، كيف تمسك اليراع، وتستعمل المداد، لتخط اسمك على ورقة سرعان ما تتمزق أو تبلى.*
>
> *علمتك كيف تقرأ التاريخ، والجغرافيا، والقصة أسلوباً محبباً حيناً، ومزعجاً أحياناً.*
>
> *علمتك كيف تعد أرقام الحساب، حسياً تارة، ومجردة تارة أُخرى.*
>
> *وتمر الأيام. وإذا بك يا أخي أبا الهيثم تصبح معلماً من طراز جديد.*
>
> *علمتنا يا محمد: أن خير قرطاس للكتابة التي لا تمحى هو الأرض. وخير يراع هو الرشاش، وأفضل أنواع المداد هو الدم الزكي الطاهر.*
>
> *علمتنا يا أخي محمد: أن التاريخ هو الذي يسجل زمان العزة والكرامة، وأن الأحداث الكبار لا تستقرأ في المنافي.. إنما تاريخ الرجال تتدارسه الأجيال في ساحات الكفاح والجهاد والنضال.*
>
> *علمتنا وأكدت لنا يا معلم: أن الجغرافيا لكي تطبع في الأذهان، لا يكفي أن تدرس عن خريطة معلقة على الجدران، ولكنها تدرس على الطبيعة في أرض الجليل وتلال الخليل، في روابي المالكية ونابلس ورام الله وبتير.*
>
> *ولم تنس يا معلم، يا أبا الهيثم أن تعلمنا في الحساب، أن جمع فدائي إلى فدائي آخر لا يساوي فدائيَّيْن، بل يساوي قتل عشرة من الصهاينة اليهود العنصريين الغزاة الغاصبين...* (121/4).

الجزء الخامس والأخير سمّاه صاحب السيرة "تجربتي المتواضعة في إطار منظمة التحرير الفلسطينية"، لكنها بالنسبة إلى غيره ليست تجربة متواضعة؛ فهو كان من الأعضاء المؤسسين في المؤتمر الوطني الفلسطيني في القدس بتاريخ 1964/5/28، واستمر عضواً في المجالس الوطنية والمركزية للمنظمة، كما كان عضواً في اللجنة التنفيذية. ومن أبرز أعماله التي يعتز بها رئاسته دائرة التنظيم الشعبي، وكذلك دائرة شؤون العائدين. ويمكن القول إن هذا الجزء، الذي يقع في 347 صفحة، هو كتاب وثائقي بامتياز، لا غنى عنه للباحثين في تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية وما عاشته من أحداث جسام، وخصوصاً سنة 1970 في الأردن، ولا غنى عنه للباحثين في أوضاع اللاجئين في لبنان خاصة، بحكم مسؤوليات صاحب السيرة.

توقف "أبو ماهر" نهائياً عن حضور دورات المجلس الوطني الفلسطيني اعتباراً من الدورة السابعة عشرة التي عقدت في عمّان سنة 1984، لكنه استمر في عمله عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة، ومسؤولاً عن دائرة شؤون العائدين. ثم عاد فاعتذر عن عدم قبول عضوية اللجنة التنفيذية لمّا رشح لها سنة 1987، فاختارت الجبهة

الشعبية "أبو علي مصطفى" ممثلاً لها في اللجنة. أمّا نشاطاته المتعددة خارج إطار منظمة التحرير فقد استمرت طوال عقد التسعينيات من القرن الماضي، وحتى يومنا هذا. وما زلنا في انتظار الجزأين الأخيرين من تجربة "أبو ماهر" مع الأيام: أمّا الجزء السادس، فعنوانه: "تجربتي التنظيمية في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين". وأمّا الجزء السابع والأخير، فعنوانه: "تجربتي في عدد من الأطر والهيئات الثقافية الوطنية والقومية بعد مطلع عام 1992 وحتى إصدار هذه التجربة".

(7) كنا نتمنى أن نقرأ..

أبدأ بكلمة أوجهها إلى الناشر، فهو المسؤول عن غياب مادتين رئيسيتين في الأجزاء الخمسة، ونتمنى أن يوفرهما في الجزأين المتبقيين، وفي الطبعات اللاحقة، وهاتان المادتان هما: المحتويات والفهارس. فما عاد مسموحاً أن تصدر كتب بلا محتويات، وبلا فهارس للأسماء على الأقل.

وللأجيال الفلسطينية والعربية الصاعدة أقول: هذه كتب يجب أن تُقرأ، وأن يُحافظ عليها؛ فهي مراجع على غاية من الأهمية، في تاريخ فلسطين وقضيتها.

وأمّا للأخ "أبو ماهر"، فأقول:

كنت أتمنى – أخي "أبا ماهر" – لو قرأتُ خلاصة لتجربتك في الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982، وعن نتائج هذا الاجتياح على القضية والمصير. ولعلنا نقرأ هذا في جزء لاحق.

كنت أتمنى لو أعرف آراءك في كثير من القضايا والمسائل والأشخاص. صحيح أنك شملت البعض بالتوقف عنده، كما فعلت مع إخوانك في قطاع التربية والتعليم، لكننا افتقدنا مثل هذه اللفتات إزاء إخوانك ورفاقك في العمل السياسي.

لذلك، أتمنى أن يكون هناك جزء مستقل "حر إلى أبعد حدود الحرية"، تتناول فيه الأشخاص الأعلام، كما تتناول المناضلين المغمورين الذين عرفتهم عن كثب؛ وأنت المشهود لك بالرأي الحر مجابهة ومن على المنابر، لكننا نتمنى هذه المرة أن نقرأه على صفحات سيرتك.

وأختم يا أخي "أبا ماهر" بكلمات أرجو أن تتقبلها مني بكل الحب الذي نحمله كلانا لفلسطين:

هل أجرؤ على القول إنها كانت نعمة لا نقمة أنك لم تحمل معك أوراقاً ولا وثائق من أرض الوطن؟ لذلك استمتعنا بقراءة الجزء الأول من تجربتك مع الحياة، حيث اكتشفنا مذكرات متفوقة على مثيلاتها، متماسكة في سردها، مشوقة إلى أبعد الحدود في تفصيلاتها عن تاريخ فلسطين القريب البعيد؟

هل في استطاعتك أن تتخيل مدى سعادتنا لو قرأنا تجاربك مع الأيام كلها على هذا النحو، ولو تأكدنا من كل ما قلته عبر الوثائق الملحقة، مهما تحتل هذه الوثائق من صفحات في نهاية كل كتاب؟

ذكرتُ أعلاه أنني أعتقد أن فلسطين والفرادة التي تتمتع بها قضية فلسطين هما اللتان أوحتا إليك بالدمج بين مختلف أنواع الأوراق والبيانات والتقارير، وبتغييب النص الذاتي المطلوب، وبالتالي التوصل إلى "المنهج الفريد في نوعه" في كتابة السير الذاتية. لكنني في النهاية، ومع كل تقديري لكل ما ورد لديك، أتمنى عليك باسم فلسطين أن تكتب لنا، يا أخي "أبا ماهر"، خلاصة حقيقية لتجاربك الغنية، منذ سنة 1949.

وإن سألتني: لماذا؟ أجبتك: أمثالك – قبل الوثائق – هم المصدر الرئيسي الأول للتاريخ الذي لم يكتب بعد. ■

(*) مؤرخة فلسطينية، بيروت.

(**) **الأول**: "في فلسطين"؛ **الثاني**: "في دنيا الشتات خارج فلسطين"؛ **الثالث**: "في ميدان العمل التنظيمي والجماهيري والمهني (الثقافي والتربوي)"؛ **الرابع**: "التجربة في إطار حركة القوميين العرب"؛ **الخامس**: "تجربتي المتواضعة في إطار منظمة التحرير الفلسطينية".

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx